انكلترا بفتح قناة السويس فى وجه الأسطول الروسى المسافر إلى الشرق الأقصى ، واضطر هذا الأسطول أن يطوف حول إفريقية ، وأن يسير إلى الصين من طريق رأس الرجاء الصالح ، وكان هذا السفر الطويل من عوامل انهاكه وهزيمته بعد ذلك فى موقعة تسوشيما (سنة ١٩٠٥) وخسران روسيا للحرب ، هذا مع أن روسيا إحدى الدول الموقعة على معاهدة سنة ١٨٨٨ كما قدمنا .

وفى الحرب الكبرى لم تحترم حيدة القناة ولم تحل المعاهدة الدولية دون تحصينها واغلاقها فى وجه الدول المعادية لانكلترا ودول الحلفاء ؛ وقد استأثرت انكلترا وحلفاؤها أثناء الحرب باستعمال القناة ؛ ومن جهة أخرى فان ألمانيا وتركيا لم تحترما من جانبهما حيدة القناة ، ونظمتا سنة ١٩١٥ أكثر من هجوم محلى على مصر من جهة القناة ، وضربت شواطئها بالقنابل المخربة ؛ واستمرت طوال الحرب منطقة حربية محضة تستأثر انكلترا بالاشراف عليها

وكذلك لا نستطيع فى الظروف الحاضرة التى يحلق فيها شبح الحرب فى شرق افريقية أن نقف عند المعاهدات والنصوص فى تقدير الدور الذى يمكن أن تؤديه قناة السويس فى اذكاء هذه الحرب أو وقفها ؛ فايطاليا تستعمل القناة بملء الحرية لارسال الجند والذخائر إلى شرق افريقية ؛ فاذا نشبت الحرب بينها وبين الحبشة فماذا يكون شأن القناة ؟ هل تظل مفتوحة أثناء الحرب لمرور الأمداد الايطالية ، أو تغلق فى وجهها ؟ إن معاهدة سنة ١٨٨٨ صريحة كما بينا فى وجوب فتح القناة وضمان حرية الملاحة فيها أثناء الحرب بالنسبة للفريقين المتحاربين ؛ ولكن النصوص وحدها لا تكفى هنا . وكل شىء يتوقف على ظروف الملائق بين انكلترا وإيطاليا ؛ فاذا كانت هذه العلائق مما يسمح بتأييد السياسة البريطانية لمشروع إيطاليا فى غزو الحبشة ، فان القناة ستبقى مفتوحة حرة ؛ وإذا كان لدى السياسة البريطانية ما يحملها على الوقوف فى وجه مشاريع إيطاليا ، فقد تغلق القناة بالاستناد إلى ميثاق عصبة الأمم أو غيره من الأسانيد والنصوص

وعلى أى حال فان المسألة فى منتهى التعقيد والدقة ، وأمرها مرهون بالظروف والمفاجآت التى قد تثيرها الحوادث دون توقع أو تقدير

محمد عبد الله عنان

مات الشيخ بدر الدين !

للأستاذ على الطنطاوى

اليوم انقطعت رواية الحديث :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا ، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا

أخرجه البخارى ومسلم والترمذى

كان أقل مزايا الشيخ بدر الدين الحسنى أنه يحفظ صحيحى البخارى ومسلم بأسانيدهما ، وموطأ مالك ، ومسند أحمد ، وسنن الترمذى وأبى داود والنسائى وابن ماجة ، ويروى لك منها ماتشاء كأنه ينظر فى كتاب ؛ وأنه يحفظ أسماء رجال الحديث وماقيل فيهم ، وسنى وفاتهم ، ويعجبك مما شئته منها ، وأنه يحفظ عشرين ألف بيت من متون العلوم المختلفة كالألفية والزبد والشاطبية والطيبة الخ ... وأنه ألف نحواً من خمسين مؤلفا قبل أن يجاوز عمره الثلاثين ؛ وأن له اطلاعا فى كافة العلوم حتى الرياضيات العالية فقد أقرأها لطلاب شعبة الرياضيات فى المدرسة التجهيزية فأدهشهم وأدهش باطلاعه معلميهم ؛ وأنه ما انقطع عن الدرس والتدريس يوما واحداً منذ سبعين سنة على زهادة عجيبة ، وورع نادر ، وترفع عن الدنيا ولذاذاتها مع الغنى الواسع والمال الكثير ، وهو على الجملة آخر علماء السلف الصالح رضى الله عنهم .

مر على دمشق فى هذه السنين العشرين ، من جليل الحوادث وفادح الخطوب ، مالو مر على الشامخات الرواسى لجعلها دكا ، أو وقع على الجلاميد الصم لصيّرها هباء . فأعدت له الايمان الذى لا يزلزله رزء ، والثبات الذى لا تزيله مصيبة ، وصبرت عليه « صبر العظيم على العظيم » . . . . حتى تعودت مسّ الضرّ ، وألفت توارع الدهر

« وصارت إن أصابتها » سهام تكسرت النّصال على النصال

وغدا أبناؤها لطول ما رأوا من البلاء ، وما راضوا نفوسهم عليه من الصبر ، لا يألمون لمصيبة ، ولا يجزعون لنائبة ، ويهتفون بالزمان كلما تعب من مساءتهم ، فأقلع عن ايذائهم :

إن كان عندك يا زمان مصيبة مما تسوء به الكرام فهاتها

* * *

نكبت دمشق الحرب ، فقلّت الأقوات ، حتى أكل الناس

العشب . . . وباد الرجال : مَنْ لم يمت منهم برصاص الانكليز والفرنسيين ، ومن لم يمت من الجوع ، مات على مشانق جمال باشا ، حتى لم يبق فى دمشق إلا شيوخ ركّع ، ونساء جُوَّع ، وأطفال رضّع . . .

فشيعت دمشق من مات ، وحدبت على من بقى ، ماخارت ولاجزعت . . . « وصبرت دمشق » !

ثم كانت « مَيْسلون » فذبح « العُمْروط الأفّاق » ربّ البيت ، واستباح الحمى ، وأراد أن يعدو على سليلة الشرف ، وبنت الأكرمين ، فصدّته أروع صدّ ، فأتى على الديار فجعلها حصيداً ، كأنْ لم تَغْنَ بالأمس ؛ وعادت دمشق من ميسلون ، فاذا كل شيء قد انهار ، وإذا الدار قواء ، كأنما لم يشد فيها مُلك ، ولم تقم فيها دولة ، ولم يكن لها استقلال . . .

فدفنت دمشق بيدها أبناءها ، وأقسمت على قبورهم « القسم الأحمر » ومابكت ولاشكت . . . « وصبرت دمشق » !

ثم كانت الثورة ، فهبت دمشق تعلن فى أبنائها بأن قد جاء « الامتحان الأول » فأروني ماذا حفظتم من الدرس . . .

وكان الامتحان فى دقّ الباب [1]

فدقه الأبطال من أبناء دمشق دقّاً ضوضى [2] على جوانب السين ، فثار الناس فزعين يقولون : ماذا ؟

قيل : بردى يشتعل ! . . . قالوا : أطفئوه بالنار !

فكانت المعركة بين الماء والنار . . . بين الدم والحديد . . . فردّ الفتية المُزّل الجيش اللجب ، فوقف سنتين دون نهر تورا لايجتازه ، وما عرضه بأكثر من « ستة أمتار »

ثم انتهى الامتحان ، فدفنت دمشق أبناءها ، وقامت دمشق المفجوعة على أنقاض دمشق المحرّقة المهدّمة فجدّدت القسم ، وكانت ميسلون فصارتا ميسلون والغوطة . . . . . « وصبرت دمشق » !

ثم كان يوم (٢٠) كانون ، فأعلنت دمشق أن قد جاء الامتحان الثانى ، وكان الامتحان فى فتح الصندوق [1]

فقالت القوة : لا ! وقال الحق : نعم !

فكانت المعركة بين القوة والحق ، فانتصرت نعم ، وكسر الصندوق ، ودفنت دمشق أبناءها ، وجددت القسم ، وصرن ثلاثة : ميسلون والغوطة والمرجة ! « وصبرت دمشق » !

صبرت دمشق ، ولم تجزع ولم تضطرب ، ولم تقلقها هذه الحادثات ولم تبكها ؛ ولكن كلمة واحدة سرت أمس فى دمشق ، فتقلقلت لها دمشق واضطربت ، وخفّت منها الأحلام ، وضلّ عنها الصبر ، فلم تعد تطيق صبراً ، فانفجرت تبكى فى نكبة اليوم النكبات كلها !

تلك هى الكلمة الرهيبة : مات الشيخ بدر الدين . . . .

***

كان الشيخ سرّ قوة دمشق ، تلجأ اليه كلما دهمتها الخطوب ، فتفيء منه إلى جنة وارفة الظلال ، وتفزع اليه كلما حاق بها اليأس ، فتجد عنده الأمل الباسم الذى يشق طريقاً للحياة وسط شعاب الموت ، والثقة بالله التى تسمو بصاحبها حتى يجتاز العقبات كلها طائراً بجناحين من الشجاعة والثبات

وكانت كلمات الشيخ كأنما هى السحر ، ينصب فى أعصاب الشاميين إذ يسمعونها ، فيقدمون لايهابون شيئاً ، كذلك الذى شرب ماء الحياة فلا يبالى — وهو لن يموت ! — أىّ أودية الموت سلك !

وكان الشيخ رمز العصور الذهبية الأولى ، وصفحة حية من تاريخ المجد الاسلامى ، وآية من آيات الله قامت فى هذه الأيام المظلمة لتنيرها بنور الصدر الأول ، كما ينير البدر الليل الداجى بنور الشمس المشرقة ، ولكنّ ذاك بدر الدنيا ، وهذا « بدر الدين » !

وكانت غرفة الشيخ فى دار الحديث حمى قد حماه الله بهيبة العلم ، وحجبه بجلال الاخلاص ، فهى من دمشق الأموية أو العباسية ، أو دمشق صلاح الدين ، لا من دمشق « القرن العشرين » ، وقفت عند عتبتها سطوة جمال باشا ، وقوة الانتداب فلم يجتزها منهما شيء ؛ وكان يجيئها أبداً العتاة الجبارون الذين

(١) قال أمير الشعراء رحمه الله :

« وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق »

فذلك هو الباب . . .

(٢) أى كانت له ضوضاء

(١) قيل : هو صندوق الانتخاب

يخشاهم البلد ، ويجرى حكمهم لا يرده أحد ، فكانوا جميعاً من بشاوات وموسيوات . . . يخلعون نعالهم بأيديهم ، ثم يدخلون مطأطئى رءوسهم حتى يجلسوا على ركبهم بين يدى الشيخ ، خاشعة أبصارهم ، ترهقهم ذلة ، ثم لا يتكلمون إلا أن يسألهم ، أو يأذن لهم بالكلام ، وربما أعرض عنهم ، وربما وعظهم أو علمهم ، ولا يقول لهم إلا كلمة الحق ، ولا يكلمهم إلا بلسان عالم من دمشق صلاح الدين !

فكان الشاميون حين يرون هذا لا يبالون ، وفى دار الحديث هذا الجيش ، بما كان فى دمشق من جيوش ودبابات وطيارات .. أفليس عجيباً أن هذا الشيخ الهمّ ابن التسعين ، قد :

سدّ الطريق على الزما ن وقام فى وجه الخطوب !

* * *

والشيخ لا جرم نسيج وحده فى هذا العصر ، وهو بقية من المحدثين الأولين الذين ألّفوا بسيرهم تاريخ المسلمين العلمى ، أجل تاريخ علمى كتب أو يكتب إلى يوم القيامة . فقد لبث سبعين سنة ، يشتغل بالدرس والتدريس والتقوى والعبادة ، على خطة معروفة ، وسنة مألوفة ، ما تبدلت يوماً ولا تغيرت ، إلا لمرض مقعد ، أو أمر قاهر ، أو سفر لازم ؛ وقد بلغ من ثبات الشيخ وحسن ظنه بالله عز وجل انه كان[1] مرّة فى قطار الحجاز فوقف القطار فى عرض البادية لشىء طرأ عليه ، (وقد رأينا هذه البادية فاذا هى رمال ملتهبة ، وشمس محرقة ، ولا شىء سواها) فنزل بعض القوم يصلون ، ونزل الشيخ ، فلما أحرموا بالصلاة وكادوا يركعون ، صفر القطار ، فانفضوا إليه فتعلقوا به وتركوا الشيخ قائماً . وسار القطار ؛ (قال الراوى) فنظرت إليه فلا والله ما التفت ولا تحرك ، فكدت والله أجنّ ، وأقبلت على من بيدهم أمر القطار فرجوتهم أن يقفوه فأبوا ، فسقطت على قدمى كبيرهم حتى لان فأمر بالقطار فتقهقر حتى وقف على الشيخ فاذا هو جالس لم يسلّم ، فلما سلم قام فركب ، وما يبالى بانقطاعه فى البادية ، ولا بالموت الذى يحوم حوله ، ما دام قائماً بين يدى رب الأرض والسموات ، ومن بيده الموت والحياة

* * *

لبث سبعين سنة يفيق إذا عسعس الليل[1] ، فيصلى ماشاء الله أن يصلى ، فيشعر بلذة العبادة ، ويحس حلاوة الايمان ، ويسمو بنفسه عن الدنيا ولذاتها حتى يحقرها وتهون عليه ، فيصبح وهو يطير بنفسه فى سموات الجنان والناس يعشون فى حضيض الأرض

ثم يمضى إلى الجامع الأموى فيصلى الصبح مع الجماعة ، فى مكانه الذى لم ينقطع عنه ثلاثة أرباع القرن ، وربما ثبت عليه أكثر من ذلك ، فقد جاوز رحمه الله التسعين ، فاذا قضيت الصلاة عاد إلى غرفته ، فلبث يقرأ ويقرئ إلى ما بعد الشمة ، إلا أن يكون يوم الجمعة فيجلس للدرس العام يحدث الناس تحت قبة النسر من الظهر إلى العصر ، لا يسكت ولا يتنحنح ولا يقف ؛ يبدأ بحديث فيرويه مسنداً ، ويستقرئ طرقه كلها ، ويتحدث عن رواته ، ثم يذكر شواهده من الكتاب والسنة ، فلا يروى حديثاً إلا رفعه ، ولا كلمة إلا عزاها ، ثم يذكر ما أخذه منه الفقهاء من الأحكام ويوازن بينها ، ويبسط الكلام فيما يتصل بذلك من الفلسفة والتصوف والعلوم ، وكان الشيخ فى الفلسفة الاسلامية منقطع النظير

وطالما حضر هذا الدرس جلة علماء دمشق ومن يزورها من علماء الأقطار ، فخرجوا معجبين مكبرين ؛ وطالما حضره الأطباء والمحامون وأهل الفلسفة والطبيعة ، فخرج كل وقد امتلأ وطابه من وسائل الفن الذى يشتغل به ، أو العلم الذى انقطع إليه

وكان يمضى الدرسان والثلاثة ولم يتعد الشيخ شرح حديث واحد

ولم يكن يردّ سائلاً ، أو طالب علم ؛ وكان يوليه ماشاء من وقته ووجهه ؛ وكان إذا استفتى قال للسائل ، انظر كتاب كذا ، وكتاب كذا ؛ وربما دله على الصفحة التى يجد فيها المسألة ، لا يحب أن يفتيه هو

وكان يصوم الدهر ، فاذا كان المساء أكل ما قدم إليه ، ولم يعرف عنه فى سفر ولا حضر انه اشتهى طعاماً أو كرهه إلا مرة كان فى سفر ، فقيل له : ما تطبخ ؟ فقال : ماشئتم !

قالوا : عندنا بامياء وفول وعدس . . . .

(١) حدث بهذه القصة رجل كبير كان شاهدها

(١) وذلك قبل السحر

قال : هل قلتم إن عندكم قولاً ؟

ففهموا أنه يشتهيه ، ولم يروعنه فى هـذا الباب أكثر من هذا . ولم يكن يشتم رجلاً أو يغتابه ، ولم يكن يدع أحداً يغتاب فى مجلسه ، وكان غاية تأنيبه إذا غضب أن يقول :

— « بابا — وكانت تلك كلمته — لماذا أنتم هكذا ؟ »

* * *

تواضع لله ، فأناله الله رفعـة ما أنالها سلطاناً ولا ملـكا ، وانصرف عن الدنيا فأقبلت عليـه الدنيا ، ودر عليـه المال فما مسه ولا مد إليه يداً ، واعتزل الناس ورغب عن الجاه ، فأقبل عليه الناس ، ورغب فيه الجاه ، فما غيره ولا أقام للجاه وزناً ، وابتعـد عن الحكام ، فتزلف إليه الحكام ، ووضعوا بين أيديه دنياهم فما حاد عن دينه ولا رزأهم دنيا ، ولا كتمهم نصحاً ...

عاش فكانت حياته أعظم حياة ، ومات فكان موته أفخم موت[1] . وكيف لا يكون فخما ، وقد كان الشيخ دولة وحده ، وقد كان تاريخاً ، وقد كان مجموعة كاملة من الفضائل كلها ، تأكل وتشرب وتمشي ؟

* * *

رحمك الله يا أيها الامام العالم العظيم ، ورزق دمشق الصبر على فقدك ، وعوّض منك المسلمين خيراً ....

فقد كنت بدراً للديانة مشرقاً وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

على الطنطاوى

(١) وكنا على أن نصف الجنازة التى مشى فيها مائة وخمسون ألفاً ، ولم تر دمشق مثلها ، فضاق عنها هذا الفصل ، ولعله لا يضيق إن شاء الله عنها فصل آت .

الرسالة فى الصيف

تسهيلاً لوصول الرسالة الى قرائها مدة العطلة تقبل الادارة الاشتراك الشهرى بأربعة قروش عن كل أربعة أعداد تدفع مقدماً

الشعر الوطنى فى الأندلس

للأستاذ عبد الله كنون الحسنى

كثر الشعر الوطني عنـد العرب فى العصر الحديث كثرة عظيمة حتى طغى على غيره من الأغراض الشعرية ، فأصبح لا يكاثره غرض آخر منها . وما ذلك إلا لأن البلاد العربية كلها قد مزّق الاستعمار شملها ، فأصبح أهلها خاضعين للنير الأجنبي يتشوّقون ليوم الحرية تشوق الظمآن للماء البارد ؛ فهم تارة يتغنون بالنصر الباهر الذى يكسبونه فى موقعـة ذلك اليوم ، وتارة يستعرضون مواقف المجد والبطولة فى تاريخهم الأدبى والحربى ، فيثيرون بذلك شعور مواطنيهم للسعى إلى تقريب أمد ذلك اليوم الذى تشرق شمس الحرية فيه على ربوعهم فيعود اليها مافقدته من العز والعظمة ، وتارة يثنون على قومهم لتخاذلهم وقعودهم عن حرب العدو المغير على أوطانهم ، لافتين أنظارهم إلى ما يـومونهم من الخسف والعذاب ، وما يبتزونه من أموالهم وخيرات بلادهم

وأخيراً ، وعلى هذا المنوال ، تـكوّن الشعر الوطني فى العربية ، وأصبح فى المقام الأول من أغراضـه الشعرية ، تخلف بذلك المديح الذى كان يحتل هذا المقام من قبل

ونحن إذا رجعنا إلى ما قبل العصر الحـديث من العصور المختلفة وقلبنا تطورات الشعر العربى فى تلك العصور ، لم نجـد للشعر الوطنى ذكراً ولا أثراً بين أقسام الشعر ، ولم نعثر على ما يفيد أن هـذه الظاهرة التى غلبت على الشعر العربى اليوم أمكنها فى عصر من العصور أو طور من الأطوار أن تظهر ، بله أن تغلب على شعر شاعر من العرب أو من غير العرب فيمن نظم بالعربية ، فتجرف غيرها من الظواهر وتـكون هى المسيطرة على كثرة أشعار الشعراء كما هو الحال اليوم . ولذلك لما قال ابن الرومى أبياته المشهورة فى هذا المعنى كانت عنقاءَ مُغرِب الشعر الوطنى ، فتداولتها الألسنة وأصبحت مثلاً يُضرب فى طبيعة حب الناس لأوطانهم ، وتلك الأبيات هى :

ولى وطن آليت ألا أبيعه وألا أرى غيرى له الدهرَ مالـكا
وحبب أوطانَ الرجال إليهمُ مآرب قضّاها الشباب هنالـكا